مصطفى كامل باشا

هو مصطفى كامل بن علي أفندي بن محمد بن علي بن سليمان بن حسين بن مصطفى بن يوسف بن حسن، كان جده يعمل بتجارة الغلال بينما كان والده مهندساً حربياً ولد

في قرية كتامة إحدى قرى مركز بسيون وشيد منزلاً بحارة درب الميضاة بشارع شيخون بالقاهرة وهذا هو المنزل الذي ولد فيه مصطفى كامل في الساعة الثانية بعد غروب شمس يوم الأحد غرة رجب سنة 1391هـ/1874م.

توفي والده عام 1886م وكان مصطفى ابن الثانية عشر من عمره، فكفله اخوه حسين واصف الذي أصبح وزيراً للأشغال فيما بعد ، بدأ تعليمه ونال الشهادة الابتدائية من مدرسة القربية الاميرية بالقاهرة في احتفال فخم أقامته نظارة المعارف وحضر الخديوي توفيق سنة 1887 م والقى مصطفى خطاباً أنيقاً في الحفل فصفق له الحاضرون وحاز على اعجاب الخديوي الذي سأله عن اسمه فأجابه :

اسمي مصطفى كامل

فهمس في أذنه ضابط المدرسة :

- قل عبد سموكم مصطفى كامل.

ولكن مصطفى أعرض عنه، وسأله الخديوي عن عمره، ثم عن اسم أبيه فقال :

المرحوم علي أفندي محمد المهندس

فعاد الضابط المسعور يهمس في أذنه :

قل عبد سموكم ...

ولكن الصبي لم يفعل، وقال له الخديوي : فتح الله عليك.

شكراً للأمير المعظم

وبعد انتهاء الحفل قال مصطفى للضابط :

(ما كان أبي عبداً وما كنت كذلك، وإذا أجبت بغير الواقع كما كنت تريد أن أجيب كنت كاذباً).

وهذه القصة البسيطة توضح وتبين إعتزاز مصطفى بنفسه وجراءته وإقدامه وقدرته على مخاطبة الجموع منذ نعومه أظفاره والتحدث بشجاعة ترفض النفاق، كما عرف عنه البساطة والصراحة، والتحق بالمدرسة الخديوية في القاهرة ليتلقى تعليمه الثانوي وأنشأ جمعية الصليبة الأدبية وكان يخطب خلالها في زملائه.

وفي احدي المرات زار علي باشا مبارك المدرسة الخديوية عندما كان ناظراً للمعارف وسمع مصطفى يخطب فاعجب به وقال له (إنك امرؤ القيس)، ونال الشهادة الثانوية **1891**م، ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من نفس العام **1891**م وهو ابن السابعة عشر من عمره ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في أكتوبر **1892**م بعد أن نجح في اختبار السنة الأولى وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز في نوفمبر **1894**م.

اختار مصطفى مدرسة الحقوق لكي يدافع عن حقوق الأفراد وبالرغم من ذلك لم يحترف مهنه المحاماة ولم يترافع في قضية أبداً واتخذ قراره أن يقف حياته كلها على المرافعة عن قضية واحدة هي قضية مصر التي كان واقعه تحت الاحتلال البريطاني مستغلا فصاحته وبليغ لسانه فقد كان خطيباً مفوهاً موهوباً من صغره يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية وكان ينشر مقالاته في جريدتي الأهرام والمؤيد والمجلة الحديثة التي كانت تصدرها جولييت ادم في باريس.

ألقى أول خطبة سياسية له في الثالث من مارس **1896**م بالمسرح العباسي بالإسكندرية يقول فيها:

(ألا تحبون مصر التي خيم الله عليها الشقاء، وحل بها البلاء، تناديكم وأنتم حولها ألا فانصروني يا أعز البنين، ألا فارفعو شأني بين الأمم، واجعلوا لي مكانا فسيحاً بين الشعوب الحية ، أجل ... إنكم تحبونها، ويجب أن تحبوها وتحنو عليها كما يحنو المرء على أمه إذا اعتلت، ويسعي في خدمتها و يبحث عن دوائها .... ولا يكن حبكم وقفاً عند الحب، بل لتتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها وإعلاء شأنها ..... وإن يوما تجتمع فيه قلوبنا علي محبة بلادنا وخدمتها، لهو يوم تحقيق الآمال، وعندئذ يحق لنا أن نقف أمام الامم كافة وننادي باعلي صوتنا وبكل فخار : نحن بنو مصر الاحرار)

كان مصطفى كامل هو الداعية الأول لمصر في الخارج فقد طاف البلاد الأوروبية وتنقل بين باريس وبرلين وفيينا وبوخارست وبودابست واتصل بكبار الساسة هناك وخطب في المحافل الأوروبية وعقد الندوات مروجاً لقضية مصر ولم يغفل عن محاربه الاحتلال أبداً فقاوم إتفاقية السودان عام **1899**م.

واستنكر أشد الاستنكار الاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وانجلترا عام **1904**م والذي نص على أن تطلق فرنسا يد انجلترا في مصر مقابل أن تطلق انجلترا يد فرنسا في المغرب، فكانت خيبة أمل وصدمة كبيرة لمصطفى كامل الذي كان يعتبر فرنسا صديقة للمصريين ويعتقد أن فرنسا الحرة ستقف إلى جانب قضية بلاده في مواجهه الإنجليز.

وعندما وقعدت حادثة دنشواي الشهيرة عام **1906** م تلك المأساة التي حدثت في تلك القرية الصغيرة التابعة لمركز الشهداء بمحافظة المنوفية المشهورة بكثرة أسراب

الحمام بها والتي تتلخص بأن خمسة من الضباط الإنجليز يصطادون الحمام بها في موسم الحصاد واخذ أحدهم يطلق الرصاص فوق البيدر (الجرن) فأصيبت زوجة صاحب البيدر وماتت واشتعلت النيران في المحصول ولم يتمالك اهلها اعصابهم فهاجموا الضباط ووقعت مشاجرة جرح فيها ثلاثة من الأهالي بواسطة الإنجليز وثلاثة ضباط من الإنجليز بواسطة الأهالي ففروا هاربين في حر الظهيرة و كانت درجة 44 درجة مئوية وسقط الكابتن بول ميتاً بضربة شمس بعد أن جري بكل سرعة لمسافة خمسة كيلومترات.

وعلم الجنود الإنجليز بما حدث لضباطهم فهجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي وقتلوا فلاحاً وهشموا رأسه، ثم أقام اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر محكمة مخصوصة في القرية للانتقام من الأهالي وتم إعداد المشانق وآلات الجلد وإرسالها إلى القرية حتى قبل أن ينتهي التحقيق فحكمت المحكمة يوم 27 يونيو سنة 1906م بالإعدام شنقا على أربعة من الأهالي وعلى البعض الأخر بالجلد والحبس مع الأشغال الشاقة.

وظلت جثث الذين شنقوا معلقة لفترة طويلة كما جلد من جلد بكل وحشية وقسوة أمام ذويهم وأبناء بلدتهم ،فحركت هذه المأساة جموع الشعب وعم الغضب والسخط وثار مصطفى كامل منددا بهذه الجريمة النكراء والوحشية الفظيعة موقظاً ضمير الإنسانية فكتب المقالات في الصحف الاوروبية وسافر إلى إنجلترا ونجح في خلق رأي عام ضد سياسية كرومر في مصر فكان لثورته أثرها إذ اعفي الطاغية اللورد كرومر من منصبة في 12 ابريل 1907م بعد أن قام بأشنع خطأ يرتكبه سياسي في العالم فكانت نهايته وختام حياته السياسية على يد مصطفى كامل ورفقائه الوطنيين.

وفي الثاني من يناير 1900م صدر العدد الأول من جريدة اللواء التي انشأها وكانت جريدة يومية تصدر بثلاث لغات العربية والإنجليزية والفرنسية وتعد الجريدة خطوة هامة في حياة مصطفى كامل لأنها تعبر عنه وعن مبادئه و آرائه الوطنية وفكره السياسي الساعي لجلاء الاحتلال واصبحت منبراً دائماً له تنشر فكره بين الجماهير.

أنشأ الحزب الوطني (القديم) الذي كان مناوئا للاحتلال البريطاني وأعوانه وترأسه في عام 1907م وكان يضم بين صفوفه جمهرة من رجال العلم والأدب الشباب اصحاب الوطنية وكان من أهم مبادئ هذا الحزب الشعبي :

1- استقلال مصر الداخلي وفق معاهدة 1840م.

2- جلاء الإنجليز ووضع دستور للبلاد.

3- المزج بين القومية والفكرة الإسلامية بتقويه العلاقات بين مصر والدولة العثمانية.

4- ترقية التجارة والصناعة والزراعة والاهتمام بصحة المواطنين.

5- نشر التعليم على أساس وطني.

6- بث الشعور الوطني بين طبقات الشعب وإفهامه الحقوق الوطنية.

7- احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية.

8- تشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية.

كان مصطفى يتردد على الاستانة ليتخذ الدولة العثمانية سنداً وعوناً ضد الاحتلال الإنجليزي نظراً لأنها صاحبة السيادة الإسمية على البلاد ولكن الدولة العلية كانت في موقف ضعف لا يسمح لها بمقاومه الإنجليز، ومن الذين ادركوه واعتنقوا مبادئه الكثير من القامات التاريخية نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر:

أحمد حلمي المحرر باللواء ومصطفى باشا النحاس وعبدالقادر باشا حمزة ومحمد باشا حافظ رمضان وعلي بك الشمسي وامين أفندي عمر وسيد أفندي علي والأستاذ محمد صادق عنبر والأستاذ حسين فهمي بهجت ومحمود باشا خيري وأمين بك الرافعي وعبد الرحمن بك الرافعي.

ومن مؤلفاته كتاب المسألة الشرقية الذي كتبه في سنة **1898**م وعمره **24** عاماً ويعد من أهم الكتب في تاريخ السياسة المصرية، وفي سنة **1904** م أصدر كتاب الشمس المشرقة عن التجربة اليابانية ويبين مدى إعجابه بدولة اليابان ونهضتها.

ومن أقواله الخالدة في حب مصر ما قاله في أحد خطاباته عام **1907**م عندما انشد :

بـــلادي بـــلادي	لك حبـي وفؤادي
لك حياتي ووجودي	لك دمـــي ونفسي
لك عقلـي ولسانـي	لك لـــبـي وجناني
فأنـت أنـت الحياة	ولا حياة إلا بك يا مصر

ورحل المناضل الوطني مصطفى كامل بعد أن عاش **34** عاماً مجاهداً ومقاوماً الاحتلال بقلمه ولسانه موقظاً المشاعر المصرية الأصيلة، فكان اعظم خطيب سياسي جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال وفاضت روحه في العاشر من نوفمبر سنة **1908**م بعد أن حطم المرض كيانه الرقيق وخلفه محمد فريد في رئاسة الحزب واستكمال المسيرة.

واقيم للزعيم الوطني جنازة مهيبة وذكر ذلك الخديوي عباس حلمي الثاني في مذكراته عن رحيله قائلاً: (لقد أقيمت لمصطفى كامل جنازة ملكية ومرت مصر كلها أمام جثمانه وجاء الآلاف والآلاف من أنصاره من أقصى القرى، لكي يرافقوا نعشه، وأصبحوا هم حملة رسالته من بعده في الميدان الوطني وكانت روح مصطفى تلهم شعباً ضخماً ورث مثله الأعلى).

ولا يوجد وصف لعلاقة الرجلين أفضل مما قال الخديوي عباس حلمي الثاني في مذاكرته عن علاقته بمصطفى كامل فيقول : (في ايام كفاحه العصيب – يقصد مصطفى كامل – قالوا: إنني كنت خصماً لمصطفى كامل وقالوا أيضا إنه كان من صنعي وليس ما هو أكثر تضليلاً من ذلك أن مصطفى كامل لا يعود إلا لنفسه ، لقد كان رجلاً من النخبة ولقد عاش لعقيدته ومات في سبيلها أما فيما يتعلق بعباس حلمي، فإنني لم أكن أبداً خصما له ولم يكن ابداً مندوباً لي ولكنه كان أحد الطلائع وكان جندياً يحارب في سبيل مثله الأعلى ونظر إليه الشيوخ على أنه منشق ، بينما تبعه الشباب بكل قوة وكان قلمه الفصيح و لوائه – يقصد جريدة اللواء – المحارب من علامات الفخار أثناء حكمي)

ورثاه كثير من شعراء وأدباء عصره، فرثاه أحمد الحملاوي بقصيدة نشرت بصحيفه اللواء في 22 مارس سنة 1908م :

تبكيك أعـواد المنابر خشعاً	وعـلـيـك ذابت حسـرة وتأسفا
يأيها المنطق مـا لـك ساكتاً	حتى متى هذا السكوت أما كفى حسن
قم والأرق منبرك الذى عودته	الخطابة فالنفوس على شفا
واصدع بأمرك يا همام فكلنا	مرضى وأنت لنا من المرض الشفا

ومنها على لسان الزعيم ناصحاً بني وطنه :

قد كنت فرداً واحداً فحججت من		في الحكم جار على البلاد وأجحفا
واليوم كلكم رجـال فاقتفوا		أثري وجدوا فالهمام مـن اقتفى
إن مات منكم مصطفى فجمعيكم		من بعد موتي يا أفاضل مصطفى
فـثـقـوا بـمـولاكم ولا تتفرقوا		إن التفرق كـــم أذل و أضعفا

ويقع متحف مصطفى كامل في ميدان صلاح الدين الأيوبي بالقلعة وكان قبل ذلك ضريحاً يضم رفات الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد، وافتتحه وزير الإرشاد القومي رسمياً في إبريل 1956م ويشتمل المتحف على قاعتين كبيرتين وبهما بعض مخلفات الزعيم مصطفى كامل وصوره والرسائل الخاصة به في مراحل حياته وعلى لوحات لأهم الاحداث التي وقعت في أيامه مثل الاحتلال البريطاني سنة 1882م وحادثة دنشواي.

***